وهبتها حياة ثانية

(قصة استحقت باسمها جائزة)

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد جودي

[لم ترد أن تعيش بغير الرجل الوحيد الذي حرك عوامل الحب في قلبها]

مضى عليّ الآن ثلاثون عاماً في مهنة التمريض ؛ فقد أصيب زوجي — وأنا في الثانية والعشرين من عمري — بمرض طالت أيامه ؛ فعنيت بتمريضه طوال العشرة الأشهر التي قضاها في الفراش ، حتى إذا انتقل إلى العالم الآخر واصلت حياة التمريض .

ولقد خالفت بعض النساء ممرضات بالطبيعة ، وأنا واحدة من هؤلاء ، وقد وجدت عملاً كثيراً في بلدة أيست انجليان التي ولدت فيها ؛ وقضيت حياتي بين أهلها الذين أعرفهم ، وأستطيع التفاهم معهم .

وكان الأجر الذي أتناوله قليلاً ، لذلك لم أدخر قط مالاً كثيراً ، ولكنني ادخرت طائفة كبيرة من الذكريات لا تقوم بمال مهما كثر ؛ والآن يعرفني جميع أهل المقاطعة باسم العمة سارة كشنج .

وفي ليلة قارسة البرد من ليالي شهر نوفمبر عدت إلى بيتي مسرعة ، وكانت الأضواء منبعثة من نوافذ البيوت التي مررت بها . وكنت كلما استنشقت الريح الباردة شعرت بأن الحياة شيء جميل . وكنت في تلك الليلة قد انتهيت من تمريض السيدة شيد بعد وضعها ولدها الثالث . وقد تركتها هي وطفلها في صحة جيدة .

وفكرت وأنا أسير في الطريق في مسكني المريح في بيت السيدة ميل حيث قضيت الخمسة عشر عاماً الأخيرة . فكرت مسرورة في مطبخي النظيف النير ، واعتزمت أن أتعشى الليلة سجقاً وخبيص البطاطس . فذلك الجو هو الجو المناسب لمثل هذا العشاء .

ولقد كنت دائماً أشعر باللذة عند عودتي إلى مسكني ، وكان في واجهة الطابق الأول من الدار . فلما وصلت إلى الباب فتحته وضغطت زر الكهرباء فتناصت غرفة الجلوس بضوء لطيف .

وإذ تلفت لأغلق الباب سمعت صوت نشيج مكتوم فوقفت أتسمع فكان الصوت آتياً من المسكن المواجه لمسكني .

كانت تقيم في ذلك المسكن سيدة اسمها مسز فرانكلن استأجرته منذ بضعة أسابيع ولم أعرف من أمرها إلا الشيء القليل جداً . كانت شابة لا تتجاوز سنها السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين ، طويلة القامة ملفوفة ، سوداء العينين جذابتهما في وجه أبيض مستطيل . وقد تعودت أن تصبغ شفتيها بالأحمر الزاهي ، وكان ذوقها في لباسها جميلاً بسيطاً . ولم أشك في أنها حين كانت أصغر سناً كانت مفرطة الجمال . وقد أخبرتني مسز ميل صاحبة الدار أن الساكنة الشابة تشتغل بالتصوير للمجلات ، وتبعث

بالتلفاز إلى كتب الأزياء .

وإذ كنت أليفة الروح فإنني لم ألبث على أثر سكنى مسز فرانكلن فى الدار أن خطبت ودها بنية الصداقة ، وكانت الشابة كريمة النفس ، ولكنني لاحظت بعد قليل أنها لا تريد أن ترتبط بروابط الصداقة مع أحد من الناس .

فلما سمعت صوت النشيج المكتوم تطرت خلال فتحات بابها فلم أر أثراً للضوء ، ففكرت فيها وحيدة فى الظلام ، وقد تكون مصابة بأزمة مرضية حادة فاتجه قلبي إليها .

وقلت فى نفسي : « إنني لا أستطيع أن أقتحم الدار عليها غير مستأذنة » . ثم خطر لى خاطر سريع . فدخلت إلى مسكنى ، ووضعت كيس نقودى على كرسى ، وخلعت قبعتى ومعطفى ، وكانت ساعتى فى هذه اللحظة تدق التاسعة .

رتبت شعرى ، واجتزت الردهة ، وطرقت باب مسز فرانكلن فلم أسمع جواباً ؛ فأعدت الطرق بأشد مما فعلت أول الأمر . فسمعت صوتاً مكتوماً يقول :

« مرحى ! من الطارق ؟ »

فأجبت :

« إنها العمة سارة » .

ثم قلت :

« أيمكن أن تقرضينى شيئاً ؟ »

فقالت :

« أرجو أن تنتظرى لحظة واحدة » .

وسمعت حركة مشيها من وراء الباب المغلق . ثم انبعث الضوء فجأة من فتحة عتبته ، ولم يلبث أن فتح فى بطء ، ووقفت الشابة كالخيال بينى وبين الضوء . وقالت :

— أتتفضلين بالدخول ؟

فشكرتها وخطوت إلى داخل الغرفة .

والتفتت إلىّ ؛ فسقط الضوء على وجهها فغمره ، وكان شعرها الأسود الكثيف مرتباً غير مشوش . وكان ثوبها الأسود منتظماً فى بساطته ، كذلك كانت عيناها السوداوان برافتين لا أثر للدموع فيهما . فخيل إلىّ أنه يكاد يكون من المستحيل أننى سمعت نشيجها منذ لحظة .

وسألتنى الشابة فى اقتضاب وعلى فمها ابتسامة رقيقة منتصبة :

— أى شىء أستطيع أن أقرضك ؟

قلت :

— ليس عندى شىء من الشاى . فهل يمكن أن تعطينى ما يكفى قدحاً أو قدحين ؟

فأجابت :

— بدون شك وسأحضره فى الحال !

فلما سارت متجهة إلى المطبخ فحصت الغرفة بنظرة سريعة لعلى أعثر على ما يفسر أسباب حزنها كخطاب أو تلغراف مثلاً .

ولكنى لم أرَ شيئاً غير جريدة المساء ملقاة على الأرض إلى جانب كرسى موضوع تحت المصباح .

وعادت مسز فرانكلن إلى الغرفة وفى يدها علبة من الشاى . وقالت ملحة فى لهجة سريعة متوترة :

— أرجو أن تأخذيها كلها فعندى غيرها !

فشكرتها وأنا لا أزال غير راغبة فى الانصراف . فقد كانت روح المأساة تسود الغرفة ، ولقد كنت على يقين من ذلك . فقلت :

— إن البرد شديد فى الخارج .

فارتجفت الشابة وقالت :

— أهو كذلك ؟

ثم اصطبغ وجهها بلون أغبر ، ورأيت أصابعها الدقيقة تتقلص على ساعديها ، وقد ضمتها إلى صدرها من أثر التألم . فسألتها مسرعة :

— أمريضة أنت ؟

فقالت نحوى مترنحة ، والتقت نظراتنا ، وكان الألم الصارخ يبدو جلياً فى عينيها ، ولكنها قالت فى لهجة القلق الذى فرغ صبره :

— لا . لا . أنا لست مريضة .

وخيل إلىّ أن عينيها تبعثان بنظراتهما إلى داخل نفسى ، وكأنهما لا تريان شيئاً .

واسترعت الجريدة الملقاة على الأرض نظرى ، فى رأس الصفحة الأولى كتبت هذه الكلمات بالخط العريض :

« سيشنق كريج غداً . الرجل المتهم بقتل زوجته يلقى جزاءه » .

ودون أن أفكر فى كلماتى قلت :

— إذن سيشنقون كريج غداً .

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى تصلبت الفتاة ونكصت على كما لو كنت قد ضربتها ، وسقط ساعداها فى دفعة واحدة إلى جانبيها ، ومال رأسها إلى الوراء ، وخرجت من حلقها صرخة فظيعة مختنقة حبست بين شفتيها الحراوين . وكانت صرخة غير دنيوية تجمد لها نخاع عظامى . فأمسكت بكتفيها وهززتها فى لطف . وقلت فى لهجة الأمر :

— قفى هذا يا مسز فرانكلن !

فانفتحت عيناها فى بطء ، فكانتا تفيضان بجزع يعجز القول عن وصفه . ثم قالت فى همس حاد :

— نعم سيشنقونه غداً .

وترنحت الشابة مائلة نحوى فأمسكت بها وأسندتها وأجلستها على الكرسى . ثم لم تلبث أن استولت عليها قشعريرة حادة . فكان الفزع الشديد الكامن فى نفسها يهزها فى عنف كما يهز ريح الشتاء الغاضب شجيرة ضعيفة .

فقلت وقد ألمت لحالها :

— سأحضر لك شيئاً من الخمر فلا تتحركى حتى أعود إليك .

واجتزت الردهة جارية حتى وصلت إلى مطبخى فصببت نصف زجاجة من الخمر فى قدح وعدت مسرعة إلى حيث كانت الشابة لا تزال ترتجف .

فركزت حافة القدح بين شفتيها وقلت :

— اشربى هذا !

فشربت جرعة أو جرعتين من القدح ، وفى لحظات قليلة وقفت القشعريرة فقالت وهى كالتائهة :

— شكراً لك ، وأنا الآن على أحسن حال .

كانت هذه الكلمات إيذاناً لى بالانصراف ، ولكننى لم أصغ لها . وقلت فى لهجة الاعتراض :

— لا أستطيع أن أتركك على هذه الحال من المرض ، وأنت تعرفين أننى ممرضة . فاسمحى لى أن أبقى معك فترة قصيرة .

فهزت رأسها فى إشارة رفض سريعة ، ولكن كتفيها لم تلبثا أن مالتا مستجيبتين . وقالت :

— نعم . أرجو أن تبقى معى . لا تتركينى وحيدة . إبقى معى حتى ... الصباح .

قلت :

— ألا ترقدين وتسمحين لى بأن أريحك ؟

فقالت الشابة وكان صوتها الألم المجسم :

— تريحينى ؟ وهل أعرف الراحة بينما هو ينتظر الموت ؟

ثم وثبت ووقفت على قدميها ، وشرعت تذرع أرض الغرفة ذهوباً وجيئة . ثم وقفت أمامى على حين غفلة ، وكانت عيناها فى نظرى كالجمرتين المتقدتين . وكان صوتها وهى تتكلم أشد فظاعة من عينيها ، وقد قالت :

— إنهم سيشنقونه غداً . وليس فى يدى من شىء أستطيع عمله لإنقاذه . . . نعم لا شىء على الإطلاق !

فسألتها فى صوت بالغ فى الرقة :

— أو تحبينه ؟

فأجابت :

— أنا هيلارى لى

عندئذ أدركت سبب جزعها وآلامها

فقد قرأت ما كتب عن جناية القتل التى اقترفها كريج ، كما قرأها كل من يطلع على الصحف ، فقد شغلت الصفحات الأولى من الجرائد أشهراً طوالاً ، وفى أول الأمر تكرر اسم هيلارى لى عدة مرات مقترناً بالظروف التى أدت إلى الجريمة ، ولكن فى القسم الأخير من المحاكمة اختفى هذا الاسم فلم يسمع به أحد

نشرت قصة غرام هيلارى لى القصيرة على جمهور متعطش للأخبار المثيرة ، وأضيفت لها الحواشى التى تزيد الرغبة فى قراءتها ، ولكن قصة هذا الغرام انتهت وطويت صفحتها قبل حادث القتل بزمن طويل ولم يستطع القانون ولا الصحافة أن يجدا أية حلقة تربط بين حب نيكولاز كريج لهيلارى لى وبين قتله امرأته ليلى

وما سمعت كلمات الشابة المنكوبة حتى طوقتها بساعدى وصحت فى لهجة المواساة والحنو :

« عزيزتى ! »

وعادت هيلارى تنشج نشيجاً جافاً لا يصحبه دمع حتى ليخيل إلى الإنسان أنه يمزق قلبها قطعاً

وقلت لها فى لهجة الرجاء :

— حدثينى بأمرك يا هيلارى ، ففى الكلام تفريج عن نفسك

فقالت فى صوت متوتر مختنق :

— ولم لا أتكلم ، ليس فى تاريخ حياتى ما يعد أمراً خاصاً أحاول إخفاءه ، فلقد قرأ كل من أراد قصتى منشورة على صفحات الجرائد ، فلماذا أخفى عن إنسان واحد وجه الحقيقة فيها ؟

وبدأت هيلارى تذرع أرض الغرفة من جديد جيئة وذهوباً ؛ وكانت عيناها مسبلتين وشفتاها ترتجفان وقد لاحظتها بينما عادت ذاكرتى إلى الماضى مسرعة تستعرض ما قرأته من قصة هيلارى لى

وما قرأته يلخص فى أن هيلارى كانت الابنة الوحيدة لرجل غنى . وكانت يتيمة الأم منذ طفولتها وكانت فتاة جميلة صلبة الرأى ، تملك المال الزائد جداً على حاجتها . وقد أذيع أنها خطبت ثلاث أو أربع مرات ، وقيل إنها هجرت أحد خطابها فى اليوم الذى حدد لعقد الزواج

وقد شغلت الصحف وقتاً ما صفحاتها الأولى بقصة حب هيلارى للشاب الجميل الذى كان يشغل عند أبيها مركز رئيس الركبية وهى قصة قصيرة مكفهرة ، ولقد فصل أبوها هذا الموظف من عمله وأسرع فصحب ابنته فى رحلة فى أرجاء العالم المختلفة وبذلك تلاشت قصة ذلك الغرام

وحدث بعد ذلك أن أباها ادوارد لى فقد ثروته ما بين عشية وضحاها نتيجة معلومات خاطئة اتصلت به فى أعماله ، فلم يستطع الرجل احتمال التفكير فى حياة الفقر فانتحر فى غرفة مكتبة بيته فى «سورى» وعادت الصحف مرة أخرى تذكر اسم هيلارى فى رؤوس صفحاتها

وبعد ذلك تركتها الصحف معاملة فترة من الزمن إلى الليلة التى فيها أطلق نيكولاز كريج الرصاص على زوجته فى مسكن بوست أند

كان نيكولاز كريج وزوجته متباعدين منذ سنوات ، لم يستطع أحد أن يكشف قط عن السبب الحقيقى لارتكاب الجريمة ، فعادت الصحف إلى ذكر قصة غرام هيلارى لى ولكنها لم تستطع أن تجد هيلارى لى

ولقد تخيلت هيلارى فتاة متغطرسة حجرية القلب ، أول تفكيرها وآخره وكله فى نفسها ، وكان من الصعب أن أصدق أن السيدة الشاحبة اللون ذات العينين السوداوين اللتين تنبعث منهما آلام العذاب النفسى هى حقاً هيلارى لى المشعوذة الخداعة

ثم بدأت الفتاة تتكلم فى جمل قصيرة مقتضبة كما لو كانت كل كلمة تنطق بها قطرة جديدة من الألم الصارخ تعصر من قلبها ، وكانت وهى تتكلم تذرع أرض الغرفة بخطواتها ، ولقد سبق لى أن رأيت حيواناً محبوساً فى قفص يخطو مثل هذه الخطوات اليائسة

ولم أقاطعها فى أثناء حديثها ، بل جلست أصغى لها وقلبى يتفطر ألماً لها مع كل كلمة تنطق بها . وهذا ما قالته :

* * *

لقد جعلت الصحف من حبنا « أنا ونيكولاز » شيئاً رخيصاً فاجراً ، ولكنه فى الواقع لم يكن كذلك فقد كان نيكولاز يشرف على خيل أبى شهوراً عديدة قبل أن أحبه ، ولم يكن فى نظرى غير واحد من الموظفين العديدين الذين يعملون فى اصطبلات أبى ، على الرغم من أننا قد ركبنا معاً مرات عديدة ، إلى أن جاء اليوم الذى ذهب فيه لمقابلة أبى فى بيتنا الريفى بنيو فرست وقد طلب أبى منه أن يصحبنى فى السيارة إلى ذلك البيت

ولما اقتربنا من منتصف الطريق داهمتنا عاصفة هائلة

فتركنا السيارة وعدنا على الأقدام تحت المطر المنهمر إلى كوخ على مقربة من الطريق كان نيكولاز قد لمحه . وطرقنا باب الكوخ ولكننا لم نسمع لطرقنا جواباً ، ولم يكن هناك من مكان آخر نستطيع أن نأوى إليه اتقاء المطر ، لذلك عالج نيكولاز قفل الباب بسكين ففتحه . وأسرع فأشعل النار وبحثنا فى المكان فوجدنا ملابس جافة ، ولم أكن قد رأيت نيكولاز قبل هذا اليوم فى غير ملابس الركوب فلما رأيته يرتدى سراويل من الصوف الأبيض وقميصاً من الصوف الأزرق رأيته إنساناً آخر مخالفاً للذى كنت أراه

وطبخ نيكولاز لنا عشاء من بعض المأكولات المحفوظة فى العلب التى وجدها فى أحد الأصوناة ، وكانت العاصفة لا تزال فى عنفوانها ، وخيل إلينا أنها تشتد عنفاً مع توالى ساعات الليل ، وكان المطر يطرق النوافذ فى شدة ، وكان عصف الرياح أشبه بولولة مجموعة كبيرة من الشياطين

وقال نيكولاز :

— يبدو لى أنك مقرورة فدعينى ألف هذا الدثار حولك

ووضع الدثار على كتفى فابتسمت له ، فإذا به ينحنى على حين فجأة بين ساعديه ، واندفع يقبلنى قبلات ما عهدتها من رجل قبله ... قبلات جائعة ... كما لو كان ذا مسغبة من الحب

ولقد تعلقت به وقلت فى نفسى : « إن هذا هو الحب ، وإننى لم أعرف قط ما هو الحب حتى هذه اللحظة »

لم أعد أشعر بشىء من البرد فلقد كنت ألتهب بنار سرور غريب ، فتركت له شفتى وقلبى ونفسى ، وقد رأيت أن حق الحياة يقضى بأن أكون معه فى ذلك المكان أغمره بحبى ، بل بدا لى أن ذلك أحق من كل شىء آخر عملته فى حياتى

ولما أشرق الصباح أشعل نيكولاز النار وأعد لنا قهوة قوية . فلما انتهيت من شرب فنجانتى ابتسمت له فى كثير من الإعجاب ، فلقد كان الرجل الذى لا تملك امرأة نفسها دون الإعجاب به والافتخار بقربه . كان طويل القامة يقرب طوله من ستة أقدام عريض المنكبين دقيق الوسط والردفين ، وكان شعره الكثيف الجعد فى لون القمح الناضج ، رمادى العينين واسمهما فى وجه قوى تزينه سمرة مبهجة ، ورد نيكولاز على ابتسامتى بابتسامة عذبة رقيقة ، فلمحت بريق أسنانه البيضاء القوية

وهمست فى لهفة :

— لنتزوج يا عزيزى بأسرع ما نستطيع ، وسنخبر أبى بزواجنا بعد عقده ، فإذا هاج غضبه — وهو لا بد أن يهيج — فلنمض بعيداً عنه حتى يعود إلى نفسه ويهدأ غضبه

وما كدت ألفظ بهذه الكلمات حتى اختفت ابتسامة نيكولاز ورأيت شفتيه تنطبقان فى خط متجهم عابس ، وقال :

— إننى متزوج بالفعل يا هيلارى

وسمعتنى أقول صائحة :

— لا ، يا نيكولاز ! لا ! لا !

ولكن خيل إلىّ أن الصوت الذى يصيح بهذه الكلمات لم يكن صوتى المألوف

فاقترن حاجباه فى تقطيبة محزنة وقال فى صوت يقطر منه الألم :

— إننى متزوج منذ أربعة أعوام ، ولم أكن إلا طفلاً عندما التقيت بليلى ، وكانت راقصة فى أحد النتديات الليلية ، فخيل إلىّ أننى أحببتها ، ولست أدرى لماذا تزوجت منى فقد ملت معاشرتى بعد بضعة أشهر من الزواج

ثم ازدادت غصة الألم فى صوته وهو يقول :

— أنا لست إلا زوج المصادفة ، فإننا نعيش أحياناً بعيدين أحدنا عن الآخر أشهراً عديدة متتابعة ، ثم ترسل إلى فأوافيها — كالكلب الذى يسير فى كعب صاحبه .

فسألته فى بلاهة :

— هل تحبها ؟

فأجاب :

« لا — لا أحبها الآن ، لا أحبها بعد الليلة الماضية

فصحت محتدة :

— كان يجب أن تقول لى ذلك فى الليلة الماضية

فضمنى بين ساعديه وقال :

— لقد كانت الليلة الماضية جنوناً — جنوناً عذباً

جديداً على ياعزيزتى . وإنك لنجم من السماء ياهيلارى ولقد سعدت إليك ولستك . ولن أكون أبداً بعد ليلة أمس كما كنت من قبل ، لقد ضممت بين ساعدى النار والثلج وتربة النجم . ولن أدعك تتركينى أبداً ويجب أن تطلقنى ليلى ، فهل تتزوجين منى متى أصبحت حراً طليقاً ؟

ولكننى قد جرحت فى عواطفى جرحاً بالغاً قاسياً ، فقد كان الفتى رجل امرأة غيرى .

فصحت وأنا أجاهد للتخلص من بين ساعديه :

— لا ، ، لا أنا لا أريد زوج امرأة أخرى ، لقد كنا مجنونين فى الليلة الماضية . نعم كنا مجنونين وقمنا فى شرك الغرام . أما فى هذا الصباح فقد عاد إلينا صوابنا . فلننس ما كان يا نيكولاز ولنبدأ من اليوم حياة جديدة

فاقترب منى وتناول وجهى بين كفيه وقبلنى فى رقة ولطف وسألنى :

— أتعتقدين حقاً يا عزيزتى أننا نستطيع نسيان الليلة الماضية ؟ لقد تذوقت عذوبة تربة النجم يا هيلارى ، فلن أقتنع بعد الآن بما هو دونها . وسيأتى اليوم الذى تصبحين فيه لى دون سائر الناس

فقلت له فى خشونة :

— لا فائدة فيما تقول يا نيكولاز فلن أتزوج منك أبداً ، وسأنساك ، ويجب أن أنساك . وكأن ما حدث ليلة أمس لم يحدث قط ، وإنى لا أريد أن تجرى الأمور بيننا على هذا الأساس ولنعد الآن إلى السيارة !

ثم قلت فى لهجة وحشية :

— من يدرى إن لم يكن الفتى قد بلغ بأبى فى هذه اللحظة حد الجنون !

فقال فى بطء :

— لقد ظننت أنك أحببتنى ، بل لقد كنت واثقاً أنك أحببتنى فى الليلة الماضية .

فقلت غاضبة وقد سحبت معطفى :

« فلننس ذلك »

وحين وصلنا إلى بيتنا الريفى انهال أبى على نيكولاز بكلمات الغضب العنيفة . ثم أزعجنى أن سمعت نيكولاز يرد على أبى صائحاً بأنه قد أحبنى

وانتبل خبر هذه المشادة بالصحف فخافت منها قصة كبيرة ، وقد أعادنى أبى إلى لندن فى تلك الليلة نفسها وبعد يومين ركبنا الباخرة فى رحلتنا العالمية

ولم أحاول أن أكتب لنيكولاز قبل سفرنا فقد كنت لا أزال أشعر بالجرح الذى أصابنى وكنت فى حيرة شديدة

وفى أقل من أسبوع فى البحر فقد قلبى ما أصابه من جمود وعاد يشعر بالألم ، فأدركت أن نيكولاز قد أحبنى حقا وأننى كنت قاسية فى صرفه من غير كلمة أزوده بها

لقد عرفت أننا لن نكون أبداً أحدنا للآخر ، فهو قد أحب ليلى على طرازه إلى الليلة التى أحبنى فيها ، ولقد ثارت نفسى على فكرة الطلاق

وسهرت ليلة كاملة فى الكتابة إليه ، فقلت له فى كتابى إننى أحببته ، وإننى لن أستطيع أن أنساه أبداً ، وتذكرت غيبوبة حبنا وسألته أن يذكرنى دائماً ، وختمت الكتاب بأن طلبت منه ألا يرانى بعد ذلك

وضعت هذا الخطاب فى صندوق البريد بأول مرفأ رسونا فيه . ترى لماذا تضع النساء قلوبهن على صفحات الورق ؟ لماذا يكتبن كلمات قد تهلك الرجل المرسلة إليه ؟

قضيت وأبي حوالي ثلاثة أشهر في رحلتنا بعيدين عن لندن ، فلما عدنا إلى دارنا لم يمض علينا أسبوع واحد حتى فقد أبي جميع ثروته واختار أسهل الطرق للخروج من نكبته

* * *

تولاني اليأس في الأشهر الأولى بعد موت أبي ، وكان لي قليل من المال ورثته عن أمي ، فاختفيت عن العالم وعن أصدقائي إلى أن التأمت جروحي قليلاً

وبعد عام من موت أبي استخدمت قسما من مالي في أحد حوانيت الملابس بمانشستر ، ودخلت العمل باسم مستعار واجتهدت جادة في استهلال حياة جديدة

وفي يوم من الأيام جاءت ليلى لمقابلتي . ولقد عرفتها منذ اللحظة التي وطأت فيها قدماها أرض الحانوت ، عرفتها قبل أن تقول : « وأنا ليلى كريج فهل أستطيع أن أراك على انفراد ؟ »

كانت المرأة جميلة مكثرة من الصباغ ، وقد أحالت شعرها إلى لون البلاتينيوم ولكن جذوره بقيت سوداء ، وقد تصلبت حواجبها بما استعملت من مواد ، وفي الجملة كانت ليلى شريرة رخيصة المعدن وقحة

أجبتها :

« ألك أن تدخلي إلى مكتبي ؟ »

فلما أغلق علينا الباب رمقتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي وعلى ثغرها ابتسامة عريضة وقحة . وقالت وقد دخلت مباشرة في الموضوع الذي جاءت من أجله :

— معي كتاب قد تحبين أن تشتريه . فقد نزل بي أنا ونيكولاز في الأيام الأخيرة شيء من العسر المالي ، فنحن أشد ما نكون حاجة إلى المال فتذكر زوجي هذا الكتاب الذي بعثت به إليه في يوم من الأيام وظن أنه قد يساوي عندك مائتي جنيه

وأخرجت من قطرها كتاباً رأيت على غلافه طابعاً أجنبياً والكتابة التي عليه من خط يدي ... وقالت المرأة وهي تبتسم ابتسامتها الوقحة :

— إن في هذا الخطاب مادة ساخنة ، فهل يعجبك أن تنشر محتوياته على الجمهور ؟ وهل تحبين أن أقرأه لك تذكرة بما فيه ؟

فأمسكت بجنب المكتب ورأيت لأسند نفسي وصحت بها ألا تقرأ شيئاً من الخطاب الذي شخص به نظري وهي ممسكة به في وجهي . لقد أحببت رجلاً في وقت من الأوقات ... أحببته حباً كلياً وكل حبي له كان مكتوباً على صفحات هذا الكتاب . والآن يرسل هذا الرجل امرأته لتستبدل بهذا الحب نقوداً جامدة

ولقد سألت المرأة في سخرية :

— لماذا لم يحضر نيكولاز بنفسه ؟

فضحكت وقالت :

— نيكولاز عامل فقير مسكين

ولقد شعرت كأن شفتي قد بردتا وتجمدتا حين قلت :

— أنت تطالبين مائتي جنيه ثمناً للكتاب ؟

أجابت المرأة :

— هو ذاك !

فشعرت بأن مرجل الغضب يغلي داخل نفسي وفكرت لحظة في أن أتناول سماعة التليفون وأدعو رجال البوليس ، ثم خيل إليّ أنني أرى تلك الكلمات التي كتبتها بخطي منشورة على صفحات الجرائد فلم أحتمل هذه الفكرة وقلت :

— سأشتري الكتاب

* * *

كان فى خزانة مكتبى ما يزيد قليلاً على مائتى جنيه ، فعددت المائتين ووضعتها على المكتب ، فوضعت هى الكتاب إلى جانبها ثم أخذت الأوراق المالية فعددتها فى تأن ووضعتها فى قطرها . ولم أكن حتى هذه اللحظة قد لمست الكتاب ، إذ لم أحتمل لمسه وهى معى فى الغرفة

ومشت المرأة إلى الباب ثم وقفت وقالت مكررة ابتسامتها الفاجرة :

— إنك لطيفة جداً فى المعاملة فهل من رسالة أحملها إلى نيكولاز ؟

قلت :

— لا رسالة له عندى

وترددت المرأة لحظة وهى ممسكة بأكرة الباب ثم قالت :

— بهذه المناسبة أرى أن أخبرك بأن لدينا صورة فوتوغرافية لهذا الكتاب ، فإذا أعسرنا مرة أخرى فإنى أخشى أن أضطر عندئذ للعودة إليك

ثم اختفت وراء الباب

فالتقطت الكتاب وبدون أن أخرجه من غلافه مزقته إرباً

وكانت الأيام التى أعقبت هذا الحادث أشبه بكابوس فظيع . ففى كل يوم يشرق علىّ كنت أخشى أن تعود . وكلما دق جرس التليفون توقعت أن أسمع صوتها . ولما لم أعد أحتمل عذاب الانتظار قصدت إلى لندن لأشترى صورة كتابى الفوتوغرافية

ذهبت مباشرة إلى مسكن صديقة قديمة وكانت قد خرجت فى الساعة العاشرة لقضاء بعض حاجتها ، فكان المسكن تحت مطلق تصرفى إلى أن عادت فى الساعة الخامسة مساء

وقد وجدت رقم تليفون نيكولاز فى دفتر التليفون فلما طلبته كان هو نفسه الذى أجاب النداء فقلت له :

« لا بد لى من أن أراك »

فصاح صيحة أستطيع أن أقسم بأن نغمة الفرح فيها كانت حقيقية صادقة وقد قال :

« أين أنت يا عزيزتى فسأحضر لك فى الحال »

فخبرته باسم الشارع ورقم المسكن وفى أقل من عشرين دقيقة كان معى

فما كدت أراه وأسمع صوته حتى بدأ قلبى يدق دقاً عنيفاً حتى يخيل إلى أننى سأختنق

ولقد رأيت فى عينيه نشوة الحب حين صاح :

« هيلارى حبيبتى إننى لم أجسر قط على أن أؤمل فى هذه السعادة ، لم أجسر قط على أن أؤمل فى أن ترسلى إلىّ يوماً من الأيام

فقلت فى حرارة :

« إجلس يا نيكولاز ولننته من هذا الأمر ، فأنا هنا لأشترى صورة كتابى ، فكم تطلب ثمناً لهذه الصورة ؟ »

لم أكد ألفظ بهذه الكلمات حتى رأيت أمارات الدهشة والارتباك تملأ وجهه ، وقال فى حدة :

« إنك لم تخبرينى عم تتحدثين »

فخبرته بما حدث فى بضع جمل قصيرة سريعة ، قلت فى ختامها :

« ولقد دفعت لامرأتك بالفعل مائتى جنيه وأريد اليوم أن أنهى الصفقة معك »

وهنا علا اصفرار الموت وجه نيكولاز ، وقد

اسودت عيناه من شدة الغضب ، وانتشل من جيبه الداخلي حافظة نقود رقيقة ، وفتح أحد جيوبها الداخلية ، ولم يلبث أن أحدق ببصره بها بينما بدا الجزع في عينيه ، وقال :

« أنا أعرف أنها شيطانة ولكنني لم يخطر لي قط أنها تفعل ذلك ، لقد ضاع الكتاب ، وأحسب أنها قد استعانت ببعض أصحابها خفاف الأيدي على سرقته »

فصحت :

« ألم ترسلها إليّ لتبيعني الكتاب؟ »

فأعاد حافظة نقوده إلى جيبه ، وفي أسرع من لمح البصر انتقل إلى جانبي وطوقني بساعده وقبلني قبلات عنيفة وقال جواباً على سؤالي :

« إني أحبك »

ثم صاح وقد أحكم تطويقي بساعديه

« سأقتلها من أجل ذلك »

فقلت راجية :

— لا تقل مثل هذا الكلام. فما أبالي ما حدث وكل ما يهمني أن أراني مرة أخرى بين ساعديك يا حبيبي

— ما كان أشد شعوري بالوحشة لبعدك ، وكم من مرة حلمت بك ! وما كان أشد تشوقي لرؤيتك ؟ إنني لم أعش قط معها ، حتى ولا ساعة واحدة بعد تلك الليلة التي قضيناها معاً . فما كنت لأتخذ امرأة غيرك ؛ فما زلت أنت نجمتي التي بها أهتدي يا حبيبتي .

فقلت :

— لا تتركني أبداً يا نيكولاز ؛ فما أريد أن أفترق عنك .

فأجابني واعداً :

— أبداً يا حبيبتي .

مرت الساعة وأنا ممسكة بالسعادة بين يدي أحاول يائسة ألا تفلت منهما ، وحتى في هذا الموقف بين ساعديه القويتين كنت أشعر شعوراً باطنياً بأن هذه هي آخرة ساعة ألقاه فيها .

وقبل أن يتركني وكد لي أنه سيجد طريقة للحصول على صورة الكتاب . وقال في لهجة الوعد الصادق :

— فهي لن تؤذيك أبداً بعد الآن يا حبيبتي .

ثم قال :

— إنني أعرف كيف أعاملها ، وسأحملها الآن على أن تترك لي حريتي بالطلاق ، ويجب ألا يكون لك أي نصيب في الموضوع. فأنت نجمتي الساوية ؛ فاتعديني بأن تبقي بعيدة مهما حدث من أمر .

فوعدته، فقبلني وانصرف .

وعدت إلى مانشستر في الليلة نفسها .

يا لله ! كم تمنيت لو أنني لم أتركه .

لقد انتظرت طوال اليوم التالي أن تأتيني رسالة منه ، وقد حملت إليّ صحف المساء الرسالة التي كنت أنتظر . لقد قتلها في مسكنها ثم سلم نفسه للبوليس . وإني لأعرف الآن أنه فعل ذلك في ثورة غضبه حين عنفته بكتابي ورفعته في وجهه وتحدته أن يجسر على الاقتراب منها لأخذه .

ولقد أخذه فعلاً وأعدمه قبل أن يحضر رجال البوليس .

أخذت أول قطار إلى لندن وذهبت مباشرة إلى

مستر لاين المحامى الذى كان يتولى أعمال أبى . فقلت له والزفرات تقطع حديثى :

— يجب أن تنقذه . فقد فعل ذلك من أجلى ، ويجب أن أذهب إليه فهو بحاجة إلى .

فقال مستر لاين فى حزم :

— يجب أن تبقى بعيدة عن هذا الأمر . فإنك لن تفيديه شيئاً باندفاعك إليه الآن ، بل لعلك بذلك تفسدين قضيته . فاركبى القطار التالى عائدة إلى مانشستر ، وسأعمل ياهيلارى كل ما أستطيع لإنقاذه .

فقالت راجية :

— أرجو أن تكون دائماً على اتصال بى ؛ فسندى بعض المال وسأنفق كل ما أملك فى الدفاع عنه .

فوعدنى المحامى بقوله :

« سأبذل كل جهدى لمصلحته ، وسأتصل بك يومياً »

وهكذا عدت إلى مانشستر ، ولكننى علمت أن فترة الطمأنينة القصيرة قد انتهت ، وأنه يجب أن أعود مرة أخرى إلى الاختفاء .

وكانت شريكتى فى المتجر راغبة أشد الرغبة فى ابتياع حصتى فيه ، فبعتها هذه الحصة وأرسلت ثمنها إلى مستر لاين لإنفاقه فى الدفاع عن نيكولاز ، ثم اختفيت من جديد .

ولقد حاولت عدة مرات أن أرى نيكولاز ، ولكن محاولاتى ضاعت عبثاً ، فقد كان نيكولاز ومستر لاين متشددين فى رفض طلبى . وقال مستر لاين فى لطف :

« هو لا يريد أن تزوريه يا هيلارى ، وأكبر معروف تقدمينه له هو أن تبقى بعيدة عن هذه القضية »

وكان مستر لاين يحمل رسائل نيكولاز إلىّ ويحمل رسائلى إليه . ومما قاله نيكولاز : « إن نجوم السماء لا مكان لها فى السجون ولقد وعدتنى بأن تبقى بعيدة عن هذه المشكلة »

انتهت المحاكمة إلى نتيجة سريعة ، وقد صدمنى القرار صدمة شديدة وإن كنت قد توقعته من أول الأمر . فقد كيفت الجريمة بأنها نتيجة الغيرة ، وقال نائب الاتهام : إن نيكولاز قد ذهب إلى ليلى يرجوها أن تعود إليه فلما رفضت أطلق عليها النار فى ثورة الغيرة التى ملكت نفسه

وبعد أن صدر الحكم عليه حضرت إلى هذا المكان حيث كنت واثقة أن ليس هناك من يعرفنى . ولقد أردت أن أستهل حياة جديدة إذا أمكن إنقاذ نيكولاز

وكنت كلما مرت الأيام تعلقت بالآمال تعلق مجنون ، أما الآن فلم يبق لى شىء حتى ولا الأمل . ولقد كنت أشعر واثقة بأنه سيرسل إلىّ لأراه مرة أخرى ، ولكن ها هى ذى الساعات الأخيرة تمضى مندفعة فى سرعتها ؟ وهو هناك ينتظر الموت الذى يوافيه صباح الغد . وأنا هنا على مسافة أميال عديدة منه أحاول أن أعيش خلال ساعات الليل الفظيعة المرعبة وسيكون الصباح نهاية كل منا ، فما أستطيع أن أحيا بعد موته ، ولن أحاول أن أبقى على قيد الحياة . وما أستطيع أن أتركه يموت وحده ، وما هى قيمة الوعد الآن ؟ يجب أن أذهب إليه ، ولا يزال

في الوقت متسع لذلك إذا أنا أردت الذهاب

* * *

وتناولت حقيبة يدها من فوق مائدة سنيرها وفتشتها لتعرف ما لديها من النقود ثم قالت :

« يجب أن أحصل على مال أكثر من هذا . وستقرضينني بعض المال فهل تضنين على بذلك ؟ »

وكانت عيناها براقتين جامدتين كالزجاج وقد تقلصت عضلات وجهها في حال عصبية مخيفة ، وقد لاحظت أنها على وشك الإغماء ، لذلك أمسكت يديها الباردتين بين يدي وأسندتها بقوة وقلت في لهجة حازمة :

— اسمعي يا هيلاري لي . لقد وعدته وعداً ، ويجب أن نحافظ عليه . ومنذ بدء الخليقة ضحى الرجال أرواحهم في سبيل حبهم المرأة ، ولن يتحمل نيكولاز سيارة توديعك له . فتركيه يقابل الموت كما يريد أن يقابله . دعيه يذهب وهو لا يزال يشعر بنعيم القبلات السماوية على شفتيه ، وعظمة نجمته أمام عينيه . صدقيني أنه يريد أن يلقى الموت على هذه الصورة ...

فبدأت الفتاة تنشج نشيجاً عنيفاً وسألتني :

وأنا ؟ ماذا يكون من أمري بعد موته ؟ ماذا يكون من أمر الغد وجميع الأيام التي تعقب الغد ؟ ألا فاعلمي أن ليس لي بعد الآن مكان في هذه الدنيا وليس هناك من به حاجة إليّ . فلقد كان هو الرجل الوحيد الذي يعنى بأمري .

فقلت :

إن لكل منا مكاناً في هذه الدنيا ، ولكل منا عمل يؤديه . فنحن جميعاً أعضاء في مجموعة الدنيا العظيمة ، وستجدين مكانك وعملك يا هيلاري لي ، والأمر متوقف على شجاعتك وإيمانك

فاتجهت عيناها وقد ملئتا يأساً إلى الساعة المعلقة فوق الجدار ، وقالت منتحبة :

— لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعد ولا يزال الوقت يسمح لي بالذهاب إليه .

فقلت :

— إنهم لم يسمحوا لك برؤيته

فصاحت في عنف شديد :

— اللهم رحمتك بي « اللهم رحمتك به وبي جميعاً ! »

ثم وجهت إلى الحديث وقد ملئت عيناها رعباً فقالت :

— ابقي معي ولا تتركيني وحيدة ، فإذا جاءت ساعة التنفيذ فأمسكي بيدي وادعي الله أن يميتني

قلت :

— تعالي إلى مسكني ، يا عزيزتي ، فيكون الأمر أسهل عليك في غرفة لم تتألمي فيها مثل ما تألمت في هذه الغرفة .

ثم طوقتها بساعدي وقدتها خلال الردهة حتى دخلنا غرفة جلوسي فارتمت مترنحة على أحد الكراسي وهي ترتجف في حال عصبية عنيفة .

فحملت حقيبة أدويتي وذهبت بها إلى المطبخ ، فسخنت ماء وصببت بعض الخمر في قدح ، وأخرجت من علبة في الحقيبة قرصين ألقيتهما في القدح ، فلما ذابا صببت على الخمر الماء الساخن ، وعدت إليها فوضعت حافة القدح بين شفتيها وقلت في لهجة الأمر :

— اشربي هذا كله

قالت متوجعة :

— إني أشعر بالبرد الشديد

قلت :

— سيدفئك هذا

فجرعت الفتاة كل ما في القدح ثم وثبت واقفة وعادت إلى حركتها الاضطرابية تذرع الغرفة ذهوباً وجيئة ، وكنت أرقبها عن كثب . وقد صاحت في صوت مختنق فظيع :

— تسع ساعات ... ألا خبريني كيف أحتمل عذاب هذه الساعات التسع ! خبريني كيف أحتفظ بعقلي إلى الساعة الثامنة ... والموت !

فقلت وأنا أطوقها بساعدي :

— قوي نفسك يا هيلاري واجتهدي في ألا تفكري في شيء

فأغمضت عينيها ومالت عليّ متعبة وقالت همساً :

— أنا متعبة حائرة

ثم ارتجفت وهمست باسم نيكولاز ومالت إلى الأمام فأمسكت بها وحملتها بين ساعدي

وأنا امرأة قوية وكانت هي هزيلة ضعيفة فحملتها إلى غرفة نومي وأرقدتها على سريري ، وخلعت حذاءيها وجوربيها ونزعت ثوبها الخارجي وسحبت عليها غطاء السرير ، وكان تنفسها إذ ذاك هادئاً منتظماً ، وكنت أعلم أنها ستنام إلى ساعة متأخرة من الصباح ، ومن المحتمل أن تبقى حتى استيقظت ولكني قد حميتها العذاب الذي ينزل بها وهي ترقب عقارب الساعة تدنو من الساعة القاتلة

وسحبت كرسياً إلى جانب وجلست عليه أرقبها وكان وجهها أشبه بقناع من الشمع . وإذ كنت أعلم أنها ستنام ساعات عديدة فقد اختلست فترة أرحت فيها جسمي بقليل من النوم

ولما استيقظت كانت عيناها لا تزالان مغمضتين وكانت مستغرقة في النوم . وساءلت نفسي لم لا تفلت روحها المعذبة من جسمها وتعرف بوسيلة ما غريبة طريقها إلى الرجل الذي أحبته فتواسيه في ساعاته الأخيرة؟ ورجوت الله أن يكون هذا هو الذي حدث

لم يبق غير خمس دقائق حتى تبلغ الساعة الثامنة

فأمسكت بيدها المترهلة بين يدي ، فقد وعدتها أن أفعل ذلك ، وشعرت بوحشة السكوت الرهيب الذي يكسر القلب ... ثم دقت الساعة الثامنة

فأحنيت رأسي ودعوت الله في بساطة أن يبارك روحه

وما زالت هيلاري نائمة هادئة ، وقد ألقت أهدابها السوداء خطوطاً من الظلال على وجهها الأبيض النحيل

ودقت الساعة التاسعة ، فقلت في نفسي :

— فلأتبلغ بشيء من طعام الأفطار

ثم دق جرس التليفون فانخطفت الساعة قبل أن يدق مرة ثانية ، وسمعت المتكلم يقول :

— أنا الدكتور مارتن . أيمكنك الحضور في الحال ؟ عندي حالة وضع متعبة وأنا محتاج إليك

فأجبته :

— نعم يمكنني أن أحضر حالاً

فقال الدكتور :

— مريضتى هى مسز باركز الصبية وسيحضر إليك زوجها بعد خمس دقائق

ارتديت معطفى وقبعتى وذهبت إلى غرفة النوم وألقيت نظرة على هيلارى لى فوجدت نومها عميقاً

فى غرفة نومى فهل لك إذا أنا لم أحضر فى الساعة الأولى أن تعنى بأمرها ؟

فأجابت مسز ميل :

— سأحل لها بعض الحساء إذا لم تعودى

هادئاً . فهبطت إلى الطابق الأول وطرقت باب مسز ميل ففتحته بنفسها ، فقلت لها :

— أنا مضطرة للذهاب إلى مريضة متعبة ، وكانت مسز فرانكلن قد شعرت بالمرض وهى فى

خرجت إلى جو الصباح الفارس فوجدت سيارة أجرة فى انتظارى فركبتها إلى جانب مستر توم باركز الشاب ، فقال لى فى صوت أجش مرتجف :

— ماري مريضة جداً

فتفارت مسرعة إلى وجهه المتقع وحاولت مواساته فقلت :

— لا تنزعج يا توم

لم يمض على زواج توم من مارى أكثر من سنة أشهر وكان زواجاً إجبارياً وقد سمعت أنهما تعاركا عراكا عظيماً وأنه هددها أكثر من مرة بأن يتركها

ولم تكن المسافة بعيدة بين بيتي والبيت الصغير الذي يسكنه باركز ، فدخلت إلى الدار مسرعة وصعدت السلم الضيق إلى غرفة النوم حيث وجدت الدكتور مارتن منحنياً على السرير فلما رآني قال :

— حمداً لله إذ حضرت يا سيدتي الممرضة ، فإن الشابة ضعيفة جداً ، وليس في مقدوري أن أجعل الولادة طبيعية

وكنت أعرف ما يجب أن أعمل فبدأنا عملنا في سرعة وسكون حتى إذا سلمني الدكتور طفلاً قوياً باكياً قال لي في صوت متوتر :

« لا تهتمي الآن بأمر الطفل ، فكل جهادنا الآن في سبيل إنقاذ الأم »

وبعد عشر دقائق قضيناها في جهد بائس التفت عيوننا على الشابة مارى وقد جمدت حركتها ، فهززت رأسي وقلت :

« لقد ذهبت إلى العالم الآخر »

ولما رفع الدكتور مارتن كتفيه المتعبتين رأيت وجهه أغبر مجهداً . وقال في بطء :

« لقد كانت صغيرة جداً لمثل هذا الوقت ، لقد كانت هي نفسها طفلة »

ثم وضع يديه على عينيه ، فقلت مسرعة :

« إنك متعب يا دكتور »

فهز رأسه وقال :

« لقد قضيت في هذه العملية الليلة كلها ، وقد جئت إلى هنا مباشرة بعد عملية أخرى شاقة »

فقلت :

« إنك لن تستطيع عمل شيء آخر هنا ، فعد إلى بيتك وحاول أن تنام »

فهز رأسه متعباً وقال :

« نعم ... أظنك على حق ، مسكينة هذه الطفلة لقد تمنيت لو استطعت إنقاذها »

ثم مسح شعر مارى بأصابعه في لطف ، ثم سار إلى الباب . وقال :

— أنا ... أليك أن تخبري توم ؟

فقلت :

— سأخبره يا دكتور .

وهبط الطبيب السلم الضيق ، وسمعته يستقل سيارته ويسير بها ، فسويت شعر الميتة ، وعشقت ساعديها على صدرها ، وسحبت الغطاء على جسمها الصغير .

وقلت في نفسي :

— مسكين هذا الطفل لقد كان خيراً له لو مات هو أيضاً .

دقت الساعة الحادية عشرة فأخرجت الطفل من الدثار الذي لففته فيه ، وشرعت أدلك جسمه بالزيت الدافئ ، وكان صبياً لطيفاً قوياً .

فتح الباب ودخل توم باركز فمال في ثقل إلى الجدار وسألني في همس أجش وقد ملأ اليزع عينيه :

— هل ماتت مارى يا عمة سارة ؟

فتعليت الطفل مرة أخرى وذهبت إلى حيث

وقف أبوه وقال له فى لطف :

— نعم ياتوم، قد ماتت ماري ولكنها قد تركت لك طفلاً ذكراً لطيفاً

فكأنه لم يسمع ما قيل له فقال :

— لا بد أن أذهب إليها

ومشى يترنح متجهاً إلى السلم

وذهبت إلى المطبخ فوجدت إبريق الشاى على الوجاق فملأت قدحاً وشربته شاكرة

وبعد فترة قصيرة هبط توم السلم مبطئاً وكان وجهه الصغير مجهداً ، فقال منهياً عبارته بتنهد عميق :

— هى راقدة جامدة لا تتحرك !

ولقد حاولت أن أواسيه ولكن لم أعرف كيف

وبدأ الطفل يبكى عند ما حمله ووضعته على ساعدى توم قائلة :

— احمله حتى أسخن بعض الماء ، وإنه لطفل كبير يكاد يبلغ وزنه تسعة أرطال

ووقف توم أول الأمر يحمل الطفل حائراً ، ثم رفعه إلى قرب كتفيه وضمه إلى صدره وأخذ ينهنهه ويطمئنه بقوله إنه أصبح فى حضن أبيه . فسكت الطفل عن البكاء ، وبدأ الأب يظهر إعجابه بوليده

وذهبت إلى المطبخ فأعددت شاياً جديداً وجئت بقطع من الخبز المقدد وعدت إلى توم وألححت عليه أن يأكل شيئاً ولكنه هز رأسه ، ومد إلى يديه بالطفل ثم اندفع على حين فجأة فى البكاء وقد تقلصت عضلات وجهه وقال :

— يجب أن أتكلم مع أحد من الناس يا عمة سارة !

فجاست أحمل الطفل بين ساعدى وقالت :

— تكلم معى يا توم

فجلس أمامى وقد تقلصت أصابعه المشتبكة بعضها ببعض حول ركبته حتى لقد ابيضت مفاصلها . وانهمرت الدموع على خديه وبدأ يقول فى حزن عميق :

— إننى لم أحبها قط ، وإنه ليحزننى أن أقول ذلك وهى راقدة فى سرير الموت ، ولم أكن راغباً فى الزواج منها ولكن لم يكن من ذلك بد من أجل الطفل وكنت أنا الملوم . ولم نكن كلانا نرغب فى الطفل المنتظر ، فكنا صغيرين جداً فلم يكن ينبغى أن يكون لنا طفل فأنا لم أبلغ العشرين بعد وكانت هى فى السابعة عشرة وبعد أن تزوجنا وعشنا فى بيت واحد أبغض أحدنا الآخر بغضاً شديداً ، وكنا نتشاجر كل الوقت ، ومن أتعس الأمور أن يعيش إنسانان معاً وهما متباغضان مثل بغضنا

— ولقد اجتهدت أول الأمر أن أكون لطيفاً فى عشرتها فقد كان يحزننى أمرها . ولكنها لم تكن تترك لى فرصة الاستمرار فى اللطف ، لقد أبغضتنى لأنها كانت تترقب أن تصبح أماً . لقد كانت صغيرة وجميلة وكانت تود أن تسعد بأيام شبابها . وقد اعتزمت أن أتركها وأرحل بعيداً على أثر الولادة ، وقلت لها ذلك أمس فقط .

قلت لها : إننى سأتب بعيداً عنك

وإنى لآسف الآن أن قلت لها ذلك . ولقد عبرت لها عن هذا الأسف منذ لحظة وهى على سرير الموت . ولكنها لم تسمعنى . فهى لن تعرف بعد الآن أننى أسفت على ما قلت .

وحبست التنهدات صوت الفتى فوضع يديه على عينيه فلما نظرت إليه تألم قلبى لحاله ... إنه حقاً لفتى

تعيس ! ليس له أهل يحيطون به ، فهو مخلوق وحيد لا صديق له وبين يديه طفل عليه أن يعنى بأمره .

فقلت :

— لقد كنت أنت ومارى صغيرين جداً بالنسبة للزواج . وأنتما فى الواقع لم يبغض أحدكما الآخر ولكنكما كنتما ثائرين على الحياة ، ولو أنها عاشت لسلحت الحال بينكما. فقال متنهداً :

« لقد قلت لها أمس إننى أبغض مجرد النظر إليها »

قلت :

« ولكنك لم تقصد ما قلت ... وكن واثقاً أن مارى تعلم فى أى مكان كانت الآن ـ أنك لم تقصد ما قلت »

فتوجع الفتى وقال :

« أود لو أصدق هذا الكلام »

قلت :

« حاول أن تصدقه يا توم »

فسألنى فى لهجة اليائس وقد رفع إلى عينيه المغرورقتين بالدموع :

« وماذا عسانى أن أفعل الآن ؟ »

فقلت فى لهجة حازمة :

« يجب أن تواصل عملك . وعليك أن تزيل الأفكار المحزنة من رأسك ، وستجد بيتاً صالحاً للطفل ويمكنك أن تدفع نفقات العناية به »

فوقف الفتى واثباً وأقبل نحوى فأخذ الطفل من بين يدى ، وقال وقد زالت عن وجهه نظرة الطفولة وبدت فيه خطوط جدية غابسة :

« هذا هو ابنى ، ولقد طردت من بيتى وأنا فى العاشرة من عمرى ، فلم يكن لى قط ما يمكن أن أسميه بيتاً . ولكن هذا ابنى ... هو ملكى وهو بضعة منى ، ولن يأخذه أحد من بين يدى »

فقلت معترضة لعلمى بقلة الأجر الذى يتقاضاه :

— ولكن كيف تربيه يا توم ؟ كيف تستطيع أن تعنى بأمره ؟

فأجاب فى صوت ملؤه الجد :

— سأجد طريقى إلى ذلك ، وقد أعزمت ألا أبعده عن بيتى . سأجد المرأة التى تحضر إلى هنا مقابل الأكل والسكن . امرأة تعنى بابنى العناية التى أريدها ، فهل تساعدينى يا عمة سارة فى البحث عن مثل هذه المرأة ؟

وكانت عبارته الأخيرة مشبعة بلهجة التوسل والرجاء .

وعلى حين فجأة كشف الأمر أمام عينى وحلت عقدة الخيط الرفيع ، ووجد المكان والعمل اللذين هما أشد ما تكون حاجة إليهما . فقلت فى لطف :

« إنى أعرف امرأة قد تقبل مسرورة أداء هذه المهمة »

فقال الفتى متأنياً فى حديثه :

« لقد قلت الآن إنه حيثما كانت مارى فإنها ستعلم بأننى آسف على ما قلت ، فأظن أننى لو حملت ابنى الآن إلى حيث هى راقدة سأكون مستريحاً معاً وستعلم أننى لا أبغضه »

فسألته :

« أتريد أن أصحبك معك »

أجاب :

« لا ... فإنى أفضل أن أذهب وحدى »

وفى الساعة الأولى جاءت إحدى الجارات لتبقى مع توم ريثما أذهب إلى بيتى ثم أعود . ثم خرجت إلى جونوشير الفارس

ووجدت هيلارى لى لا تزال نائمة . ورأيت على وجهها معالم الجمال والسلام

غسلت وجهى ويدى ورتبت شعرى وارتديت ثوباً نظيفاً

وتحركت هيلارى وتأوهت ثم فتحت عينيها وقالت فى شىء من الخجل :

— إنه الصباح

قلت :

— نعم يا هيلارى

فجلست وأزاحت شعرها الكثيف الأسود عن جبهتها ثم قالت فى لهجة مجردة من كل معنى :

— لقد مات

قلت :

— نعم يا هيلارى

فمضت تقول متمهلة فى الحديث :

— لقد حلمت حلماً غريباً . لقد خيل إلىّ أننى اجتمعت به وتحدثت معه ، فقبلنى وطلب منى ألا أحزن . لقد كان ذلك حلماً ، ولكنه كان أشبه بالحقائق حتى أننى احتفظت به ؟

وتجمع حاجباها فى تقطب يدل على الحيرة وقالت :

— أنت سقيتنى شيئاً يجلب النوم ؟

— نعم يا هيلارى

فسألتنى :

— وهل علمت أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تمكننى من الوصول إليه ... والجلوس معه آخر الأمر ؟ هل علمت أننى فى أثناء النوم ينطلق قلبى حراً فيذهب إليه ؟

أجبت :

— إننى لم أعلم ذلك ولكننى رجوته

فضمت يدى بين يديها وقالت :

— لقد كنت لى شديدة الشفقة والرحمة ، فساعدنى الآن على الحياة فى الأيام التى كتبت لى أن أعيشها

فقلت :

— إن هناك إنساناً أشد مايكون حاجة إليك

ثم خبرتها بقصة توم وماري والطفل الذى لا يريد أبوه أن يخرجه من بيته ، حتى إذا انتهيت من قصتى وقفت مترنحة قليلاً وهى تقول :

— ذلك الطفل الصغير المسكين ! نعم سأذهب إليه ، إنه ليبدو غريباً أن يكون هناك حقاً من هو فى حاجة إلىّ

ورأيت عينيها وقد زال منهما أثر الجزع فكانتا هادئتين حزينتين لحد يستحيل وصفه

ثم قالت فى بساطة :

— يريدنى نيكولاز على أن أفعل ذلك . فقد طلب منى فى الليلة الماضية ألا أحزن .

وأسرعت هيلارى فى ارتداء ملابسها حتى إذا انتهت أحضرت لها قدحاً من الشاى ، وقلت :

— سنتغدى فى بيت توم ، ولا بد أن يكون المسكين جائعاً جداً .

وبينما كنا نصعد سلم بيت توم سألتها :

— هل تعرفين شيئاً عن العناية بالأطفال ؟

أجابت :

— أستطيع أن أتعلم .

كان توم جالساً إلى جانب الموقد يحمل الطفل على ركبتيه ، وكان بكاء الصغير يصعد من طيات الدثار الملفوف فيه . فذهبت هيلارى مباشرة إلى حيث يجلس وقالت :

— إعطنى الطفل . فقد جئت لأعنى بأمره !

وجلست على أقرب كرسى ، وقد شعرت بفتاة بأننى قد شخت وتعبت جداً ، ولاحظت أن عقربى الساعة قد أشارا إلى الثانية . فقلت فى نفسى :

— سأتعشى الليلة بالسجق والبطاطس .

وبقيت هيلارى لى مع توم إلى أن بلغ الطفل السنة الثالثة من عمره ؛ ثم تزوج توم مرة أخرى من فتاة طيبة جداً أحبت الطفل حباً شديداً . وغادرت هيلارى البلدة ؛ فشعرت بوحشة شديدة لها لأننى قد تعودت أن أحبها .

وغابت هيلارى ستة أشهر . وفى إحدى الليالى عند ما عدت من بيت بعض المرضى وجدتها جالسة فى غرفة جلوسى ، فلما رأتنى ابتسمت وقالت :

— مرحى ياسارة ، لقد عدت لأقيم معك إذا كنت محتاجة إلىّ

فقبلتها وقلت :

— بارك الله فيك ، إننى لم أشعر قط بوحشة لإنسان كما شعرت بالوحشة لك .

فقالت :

— إنى أريد أن أعمل مثل عملك ، فهل تظنين أننى أصلح ممرضة نافعة ؟

فقلت :

— إنك تصلحين ممرضة نافعة جداً للوالدات

قالت :

— إذن قد اتفقنا

ولما جلسنا تلك الليلة نتعشى فى غرفة جلوسى البهيجة تحدثت معى عن نيكولاز ، فقالت وقد أكسبها بريق عينيها جمالاً رائعاً :

لقد وجدته فى تلك الليلة . لقد وجدته حقاً . ولم أفقده قط منذ تلك الليلة . فهو أقرب إلى مما كان فى أى وقت من أوقات حياته . وهذا هو الذى يشجعنى ويهبنى الأمل والسلام . وإنى لأعلم أننى سأبقى دائماً قريبة منه . وإنى لأحلم به فى أغلب الليالى وأنا بذلك جد سعيدة

وسأعمل وأنتظر تلك الليلة التى يذهب فيها قلبى إليه بعد نوى فيلقاه . وأعلم أننى سأبقى معه بعد ذلك إلى الأبد .

ثم ضحكت فى رقة وقالت :

إننا نسمى ذلك الموت ولكننى أعلم أن هذا الأمر متى جاء إن هو إلا حياة الخلود ...

عبد الحميد حمدى

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزئين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد